ظاهرة الأطلال في الشعر العربي قبل الإسلام

أ.م. د احمد حسين عبد العيثاوي

كلية التربية ابن رشد

جامعة بغداد

مقدمة

لا بد لكل باحث في أي موضوع من الموضوعات ان يقدم بين مايروم الكتابة فيه من الدوافع وألاسباب التي أثارت كوامن ذلك البحث. وها انا ذا افعل ما اشترطته للكتابة في موضوع ارى فيه فائده. فأقول: بحكم تخصصي في الأدب العربي القديم أو الجاهلي أو ما أصطلح على تسميته بأدب العرب قبل الاسلام وتدريسي لمادة هذا الأدب في كلية التربية ولأن هذا الادب، هو المرآة العاكسة لحياة العرب قبل الإسلام، أذ صوَّر بيئة العرب أرضها وسماءها، حيوانها ونباتها، حياتها الاجتماعية في سلمها وحربها ، ومقاومتها غزاة أرضها، ومن بين هذه المفردات ولدت القصيدة العربية إذ تتصل موضوعها بتلك البيئة طبيعياً وأجتماعياً، ولاجل التعرف على الممهدات للقصيدة العربية أرتأيت الكتابة في جزء القصيدة العربية الاول، وهو مقدمتها التي تابع دراستها المتقدمون والمتاخرون، وعلى الرغم من ذلك قررت أن اكون مشاركاً لهم في كتابة موضوع عنونته بـ(ظاهرة الاطلال في الشعر العربي قبل الاسلام) لقد وجدت في دواوين شعراء العرب قبل الاسلام، وما تناوله الدارسون لهذه الظاهرة وغيرها من الدراسات للقصيدة العربية خير سند يعينني في ابراز هذه الظاهره ومتابعة تاريخها، ومتابعة تطورها عند شعراء العصر الجاهلي منذ التأسيس حتى آستقر اسلوبها الذي سار عليه الشعراء اللاحقون في الجاهلية والاسلام.

أردت بهذا البحث المتواضع الكشف عمَّا للمقدمة الطللية من أثر على القصيدة العربية، اذ هي تمثل جزءاً من حياة العربي، فهو عندما يقف على الأطلال يستحضر ذكرياته وأيامه.

قسمت هذا البحث على مباحث متسلسلة بالارقام تسبقها مقدمة تعقبها خاتمة البحث ثم قائمة بمصادره ومراجعه.

أما عنوانات المباحث، فبعد المقدمة المهاد ثم أهمية المقدمة نشأة المقدمات، وتعليل ظاهرة المقدمات، وكيفية الوقوف على الاطلال، ورائد المقدمة الطللية، وعلاقة المقدمة الطللية بالقصيدة، وأقسام المقدمة الطللية، وتطور المقدمة الطللية. وقد اتخذت من منهج تحليل النصوص الشعرية التي تحمل المقدمة الطللية طريقاً لاستنطاقها مقرونة بالاحداث التي تقربنا من الفكرة المقصودة بتلك النصوص. وأختم كلامي بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

مـــهـــــاد

الاطلال في الشعر العربي :

هي جمع مفرده طلل. وتعني ما شَخَصَ من آثار الديار مما كان لاحقاً بالأرض[1] وهناك الفـــاظ اخـــرى تؤدي ما تؤديه كلمة أطلال، وهي الرَّبْع والرسم والمنزل[2] .

اذن كل ما تركته القبيلة وراءها بعد رحيلها يطلق عليه االاطلال والديار والربع والرسوم والمنازل.

وقد ذكرت هذه الالفاظ في أبيات للشعراء العرب قبل الاسلام، إذ يشبهونها بالكتابة وأدواتها. من ذلك ما جاء في شعر لأمرىء القيس يشبّه به الاطلال بالصحف المكتوبه، اذ يقول[3]

لِمَنْ طللٌ أبصرتُه فَشجَانِي كخطِ زَبورٍ في عسيب يحاني

وعنت لفظة الديار ما عنته لفظة الاطلال التي محتها الرياح، التي تعاورتها وفي هـــذه المعـــاني يقـــول الحارث بن حلزه[4]:

لِمَنِ الديُار عفوَن بالحُبسِ آياتَها كَمَـــهارقِ الـــــفُرسِ

وجاءت كلمة الربع لتعني الاطـــلال أو الاثـــار الشاخصة بعد رحيل أهلها، في شعر طرفة بـــن العبـــد يقول[5]:

أَشجاكَ الربُع أم قِدَمهْ أم رمادُ دارس حممهْ

كسطور الرق رقشه بالضحى مرقش يشمهْ

وذكر المرقش الاكبر الدار وما بها من آثار مقرناً بذلك ما نمقه قلم في الجلود المدبوغه المعَدة للكتابة، اذ يقول [6] :

---

[1]- لسان العرب – ابن منظور. مادة (طلل).
[2]- نفسه. مواد (ربع) و (رسم) و (منزل).
[3]- ديوان أمرىء القيس – تحقيق محمد ابو الفضل / ٨٥.
[4]- المفضليات – الضبي / ١٣٢.
[5]- ديوان طرفه – تحقيق د. عمر الطباع / ٨٩ – ٩٠.
[6]- المفضليات/٢٣٧ .

الدارُ قفرٌ والرسومُ كَمَا رَقَّش فِي ظهرِ الاديمِ قَلَمْ

ويشبه الاخنس التغلبي منازل حبيبته بعد رحيل أهلها بكتابة عنوان في رق نمّقه كاتب ماهر وزينَه ليدل في ذلك على مقارعة ما شَخَص من آثار الحبيبة للحدثان، اذ يقول[1] :

لابنةِ حِطَّان بنِ عوفٍ دنازلٌ كَمَا رَقَّش العنوانِ في الرِّقِ كاتبُ

أهمية المقدمه الطلليه

وللمقدمة أهميتها في القصيدة بخاصة الطللية منها إذ يؤتى بها تمهيداً لموضوعات أخرى يود الشاعر تناولها، فبعد ان يقف على الآثار المقفرة للحبيبة ينتقل وبعلاقة من تداعي المعاني وترابط الأفكار الى ذكر أهل هذه الديار وساكنيها السابقين متذكراً أيام الهوى والصبا، ومفتخراً ببطولته وشجاعته وشدة بلائه، ويتداخل فخره بنفسه بفخره بقبيلته.

لقد كانت حياة العرب الجاهليه، بل قبائلهم تقوم على الحركة الدائبة والتنقل المستمر في الأغوار والأنجاد، وفي السهول وفوق قنن الجبال وفي أجواف الصحارى وعلى سواحل البحار حيث فرض ذلك تلك الطبيعة المتقلبة الاجواء، ففيها شواظ من لهيب الحر يشوي الوجوه، وسموم تلوّح الابدان وتلوح تكلل الجبال وصقيع يجمد الدم في اطراف الاحياء ويفقع الجلود، وفيها ما بين هذا وذاك مناخ معتدل[1]. وان شباب هذه القبائل كانوا يشغلون اوقات فراغهم بالصيد والشرب أو الميسر أو الحديث عن العواطف والمغامرات، فليس غريباً ان يكون للمكان (الطلل) الذي غودر الى آخر حضور بارز في القصيدة الجاهلية لما له من صله بالشاعر أو علاقه بالمرأه التي يحمل لها الشاعر أسمى المشاعر وأعذبها، فالاطلال بالنسبة اليه تمثل الماضي والذكريات – المرأة، وملاعب الصبا والشباب – فلا بد ان تحظى باهتمام كبير.

وقد عزا بعض النقاد أهمية مقدمة الطلل الى ما يعانيه العربي الذي يعيش حياة التنقل في الصحراء المترامية الى مشكلة الفراغ الذي ينبغي عليه ملئها ولا سبيل له في ذلك الى ان يخرج في رحله للصيد أو

---

[1] ـ المفضليات/ ٣٠٤.

النزهة والالتقاء بالاقران من الاصدقاء لشرب الخمر ولعب والميسر والسعي خلف المرأه طلباً للحب والغزل[٢].

وهناك من يعزو دافع مقدمة الطلل الى الحرمان من الوطن المكان الذي ينشد فيه الشاعر الاستقرار والثبات الذي يستطيع فيه ان يقيم بيتاً[٣] فالاطلال تمثل الجزء الغابر في حياة العربي الذي يقوم على صراع الانسان ضد الطبيعه من اجل البقاء[٤].

والمقدمة الطلليه تمثل جزءاً من حياة العربي ، فهو عندما يقف على الاطلال يستحضر ذكرياته وأيامه وصباه الذي يثير في نفسه انواعاً من الحزن الشاجي والحنين الذي يدفعه الى مخاطبة هذه الديار ومناجاتها وتأمل آثارها، وما كانت عليه اذاً هو في حقيقة الامر يفصح عن عواطف صحيحة وصادقة ينفس بها عما يختلج في نفسه من الهموم في هذا الوطن المهجور ديار المحبوبه [٥] مثال ذلك قول بشامه بن الغدير [٦]

لَمنْ الديارُ عَفْوَن بالجزعِ ... بالدوم بين بُحار فالشَّرعِ [٧]

دَرَسْت وقد بقيتَ على حججٍ ... بعد الآنيس عفونها سبع [٨]

الا بقايا خيمة ... دارت قواعدُها على الربع [٩]

دَرَستُ

فوقفت في دار الجميع وقَدْ ... جالت شؤون الرأس بالدَّمعِ [١٠]

كُعُروضِ فيَّاضٍ على فَلجٍ ... تَجري جداولُهُ علىَ الزَّرعِ [١١]

---

[١]- مصادر الشعر الجاهلي – ناصر الدين الاسد ١-٢

[٢]- ادب العرب في العصر الجاهلي – حسين حسن/ ٥٦.

[٣]- الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري القيسي/٢٥٤. وانظر: أدب العرب في عصر الجاهلية/٥٦.

[٤]- الوقوف على سر الاطلال – عزة حسن ص٥ وانظر: ادب العرب في عصر الجاهلية/٥٦.

[٥]- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه د. يحيى الجبوري/١٣٤.

[٦]- المفضليات – المفضل الضبي/٤٠٧.

[٧]- الجزع: منعطف الوادي حيث انحنى. الدوم، بحار، الشرع: مواضع.

[٨]- حجج: سنين- عفونها: محون آثارها. سبع: صفه لحجج.

[٩]- قواعدها: قوائمها الربع: المنزل. دارت عليه: عطفت عليه ودارت حوله.

[١٠]- الجميع الحي المجتمعون.

[١١]- الفياض: الكثير. عروضه: نواحيه. الفلج: النهر الكبير.

فوقفتُ فيها كـــيْ أســائلُها غُوَج اللبانِ كمطرقِ النبع [1]

وجماع القول: إن للطلل حضوره في حياة العربي الذي كان يحيا فيها متأملاً مفرداتها التـي صـارت تجري في عروقه. وبمعنى آخر ان الطللية موقف من الطبيعة، ولهذا فهي تحمل الماعـات بحثيـة، وتلـوح باسطورة التجدد من قريب او بعيد، وهي تعكس نمطاً من الضمير التعيس الذي يتحسس ما هو لاعقلاني فـي الواقع ويؤمن بأن العرف السائد لايلبي الدوافع، بل يمقها، ولهذا كانت هذه الوقفه تجسيداً للامتثال او الرفض، لكنه تجسيد رومانسي فيند ان يستنبطه عناصر الغضب[2].

نشأة المقدمات

ان دراسة نشأة مقدمات قصائد الشعر العربي قبل الاسلام، ولا سيما المقدمة الطللية تقتضي منا الوقوف على دراسة الشعر العربي الذي تشكل المقدمات بخاصة الطللية المهاد المفضي الى ما بعده من موضوعات يريد الشاعر تناولها بعد المقدمة.

ان محاولة الوقوف ولأن ذلك كذلك فقد وجب الرجوع الى مظان التراث العربي عسى أن تـسعفنا فـي اضاءة جوانب موضوع المبحث .على بدايات الشعر من الامور التي لايمكن القطع بها، ومن ثم فهي ليـست مشكلة الادب العربي فحسب، بل هي مشكلة الآداب الانسانية، والالياذة والاوديسة تمثلان الملاحم البطوليـة عند اليونان[3] وليس من المعقول انهما اول نتاج ادبي لليونان، اذ لابد من وجود نتاج ادبي سبقهما ، لان مـا فيهما من الكمال يثبت ذلك، هذا بالنسبة للادب في بلاد اليونان، فكيف الحال بالنسبة لادب العرب قبل الاسلام وما هو رأي مؤرخي الادب في ذلك؟

---

[1]- اللبان: الصدر. الغوج: الواسع الجلد، فهو يضطرب لسعته على انه يقف فرسه الواسع جلد الصدر. المطرق: القضيب. النبع: شجر. يقول ضمرت حتى صارت كالقضيب من النبع في ضمرها وصلابتها.
[2]- مقالات في الشعر الجاهلي – يوسف اليوسف/٢٠٥.
[3]- الادب اليوناني القديم – عبد الواحد وافي/٦٠.

يقول الجاحظ[1] في حديثه عن عمر الشعر العربي: (أما الشعر فحديث الميلاد أول من نهج سبيله، وسهل الطريق اليه أمرؤ القيس ومهلهل بن ربيعه... فأذا استظهرنا الشعر وجدنا له. الى ان جاء الاسلام خمسين ومائة عام، فاذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام)). ويبدو من هذا الكلام أن المقصود به ليست القصيده الاولى التي نظمها أول شاعر جاهلي يمتد زمنها مائتي عام، بل المقصود أن القصائد الناضجة من روائع الشعر ذي القيم الفنية واللغوية والموسيقية هي التي نجدها في قصائد قرني الزمن السابقين للاسلام[2].

وقد حدد أحد مؤرخي الادب العربي القدماء نشأة العربي بأربعة قرون تسبق الاسلام[3]، وذهب آخر الى اكثر من ذلك حين انطق آدم والملائكة وابليس وأمماً أخرى اكل الدهر عليها وشرب واندثرت آثارها كعادٍ وثمود[4]، وهذه الآراء والاقوال تدخل عالم الغيبيات والتخمين مما لاطائلة تحته، القرآن يقول في شأن من أندثر (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى* وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)[5].

وعلى الرغم من الاشارات التي تحدثت عن أولية الشعر الا أن الحديث عن اولية القصائد العربيه لاتتعدى الاولية الثانيه لشعر العرب قبل الاسلام، إذ ان ((أول من تروى له كلمة من الشعر مهلهل ثم كعب بن عمرو بن تميم (وكان هذا شاعراً قديماً) ثم حمزة من بني كنانة، والأضبط بن قريع ، وذؤيب بن كعب بن تميم))[6].

وعلى الرغم هذا فقد تمسك بعض مؤرخي الادب بقول ابن سلام (ان المهلهل أبن ربيعه أول من قصد القصائد وذكر الوقائع).[7]

وخلاصة القول: ان ما بين ايدينا من قصائد الشعر العربي للعصر الجاهلي التي محصّها النقاد العرب وسدنة الادب تنبيء عن صناعة طويلة لايمكن معرفة زمنها كما يرى باحث حديث ونتفق ما يراه هذا الناقد.

---

[1]- الحيوان – الجاحظ ٧٤/١.
[2]- مقدمة القصيدة في العصر الجاهلي د. حسين عطوان/٦٨.
[3]- مجالس ثعلب ٤٨٠/٢.
[4]- جمهرة اشعار العرب – ابو زيد القرشي /١٨.
[5]- سورة النجم/ آيه: ٥٠-٥١.
[6]- مجالس ثعلب ٤٧٩/٢.
[7]- طبقات الشعراء – الاسلام /٢٢.

وهكذا بدت لنا نشأة الشعر العربي الغامضة، وأوليته الغامضة، واذا كان ذلك كذلك فمن البديهي أن تضيع أولية المقدمات، إذ ليست هناك حدودٌ فاصلة بين القصيده ومقدمتها، اذ ألاخيره جزء منها.

ولما كان موضوع بحثنا هو المقدمة الطللية لقصائد العرب قبل الاسلام فاننا نركز الكلام على نشأتها من خلال ما تسعفنا به مظان التراث العربي وفي هذه المعاني يقول أبن قتيبة[1]: ((سمعت بعضَ أهل الادبِ يقول ان مقصد القصيد انما ابتدأ بذكر الديار والآثار، فبكى وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر اهلها الطاغين)) .

من هذا نخلص الى أن قصائد ما قبل الاسلام الناضجة قد سبقها مراحل تطورت حتى بلغت الكمال التي هي عليه واما نشأة المقدمات فهي نشأة القصائد ومراحل نشأتها وطفولتها وبلوغها الكمال الفني.

تعليل ظاهرة المقدمات

من المظاهر الفنية للقصيدة العربية المقدمة، وهي ظاهرة كبيرة صاحبت القصيدة على مختلف الازمنة، ولم تكن واحدة حتى في العصر الجاهلي، بل تعددت أشكالها وتنوعت صورها ، اذ كانوا يبدؤون قصائدهم اما بالمقدمة الطللية أو المقدمة الغزلية أو مقدمة وصف الظعن أو مقدمة الشباب أو مقدمة وصف الطيف أو مقدمة الفروسية [2] وانما تنوعت المقدمات التي تبتدىء بها القصائد وذلك لتتواءم مع ما يتبعها من الاغراض الشعرية أو الموضوعات حيث تمهد لذلك الغرض الذي يقصد الشاعر تناوله بعد المقدمة كما يبدو لي ذلك.

وعلى الرغم من هذا التعدد لمقدمات القصائد الا ان اهتمام النقاد انصب على المقدمة الغزلية والطللية في الشعر الجاهلي، اذ لم يعر النقاد الاهتمام الكافي لغيرهما وليس من تعليل لذلك إلا أمرين : نقص استقراء

---

[1]- الشعر والشعراء – ابن قتيبة ٧٤/١.
[2]- مقدمة القصيده – د. حسين عطوان / ٢٥٦

القدماء، وكثرة المقدمات الغزلية والطللية كثرة استحقت الاهتمام عندهم كما توصل لذلك ناقد حديث[1] وتضيف بان صلة العربي وارتباطه بالبيئه التي يعيش فيها جعله يكثر في قصائدة المقدمات الطللية والغزلية حيث تفضي الاولى الى الاخرى حسب قانون تداعي المعاني وترابط الافكار.

ولنا ان نتساءل عن الدوافع التي تقف خلف تمسك الشعراء على اختلاف ازمانهم واعصارهم بهذه الظاهره الفنية التي يستهلون بها قصائدهم؟ وللاجابة عن هذا التساؤل يقتضي الحال استقراء آراء القدماء ، اذ يذهبون الى ان الشعراء تمسكوا بالمقدمات لانهم يقصدون جذب السامعين وتهيئة عقولهم للاصغاء الى الاغراض الرئيسة لقصائدهم، وفي هذا الصدد يقول ابن قتيبه[2]: (سمعت بعض اهل الادب يذكر ان مقصد القصيد انما ابتدأ بذكر الديار والدمى والاثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر اهلها الظاعنين).

وللمحدثين تعليلاتهم لمقدمات القصائد الجاهلية ولا سيما الطللية منها، اذ درسوها وبينوا خصائصها الموضوعيه وصفاتها الفنية رابطين بينها وبين الحياة الاجتماعيه لحياة العرب قبل الاسلام اذ (ان المقدمات الطللية وثيقة الصلة في نشأتها بالحياة الاجتماعية للعرب في الجاهليه)[3].

كما لاحظ بعض الدارسين المحدثين عند دراستهم لمقدمات قصائد العرب قبل الاسلام من ان ظاهرة المقدمات نشأت مرتبطة بالبيئة واسلوب الحياة فيها، وانها بقيت متواصلة معها ومتطورة، ولذلك لم تتحول الى تقليد خال من المشاعر، لذا فقد حرص الشعراء على الالتزام به على مقت منه. وهذا ما نتفق عليه مع القائلين به، لان الشعر نشأ ونما في بيئة العرب – وكان المعبر عنها لذلك استمرت المقدمات الطللية[4] وقد ذكر باحثون محدثون ظاهرة مقدمه الاطلال وارجعوها الى حالة الفراغ الذي يعيشه العربي في صحراء مترامية الاطراف واسعة الارجاء، حتى يخيل للانسان العربي آنذاك انه يعيش في عالم بلا نهاية، ولاجل

---

[1] ـ بناء القصيده العربيه في ضوء النقد الحديث – د.يوسف حسين بكار / ٢١٢
[2] ـ الشعر والشعراء ٧٤/١.
[3] ـ انوار في دراسات وابحاث الحيني محمد جابر / ٤٣.
[4] ـ مقدمته القصيده – د.حسين عطوان / ٢٦٠.

التخلص من هذه الحال كان لابد من اختيار ثلاثه اساليب لتجاوز هذه المشكلة، وذلك بالخروج الى الصحراء للرحلة أو الصيد أو لقاء الاحبة من الاصدقاء والرفاق وشرب الخمر ولعب الميسر[1]. ويرى باحث آخر ان الاطلال تمثل اللحظة الحزينة التي املاها على الشاعر شعور الجماعة اذ يقول: (ان الاطلال ليس عاطفة خاصة ولا تجربة وجدانية ذاتية ، بل لحظة حزينة أملاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي اليها بالحرمان من الوطن المكاني، وبالحنين الى الاستقرار والمقام الثابت الذي يستطيع فيه ان يقيم بيتاً يخلد فيه ذكرياته، ويسترجع مقام صباه، وهو في الواقع لا يواجه ذكرى حبه فحسب، وانما تتداعى في ذاكرته صور شبابه الذاهب ، وهذان الدافعان يكفيان لخلق عاطفة تثير في نفسه جواً مناسباً يحمله على الحنين[2]).

ان المقدمة الطللية هي جزء مصور لحياة العربي في بيئته التي يعيش فيها ، وهي تمثل تحدياً لطبيعة الانسان الذي لم يبذل جهداً من اجل التغلب عليها ومن ثم استمرار حياته على وفق الصورة التي يرتئيها.[3]

كيفية الوقوف على الاطلال

لابد من رسم صوره للطريقة التي تتم بها عملية الوقوف على الاطلال ومن ثم السلام عليها، لقد تصور ذلك ابو القاسم الآمدي (ت ٣٧٠ هـ) عندما استحضر كيفية وقوف العرب على الديار ومسألتها، أذ يقول:[4] العرب لاتقتصر الديار للوقوف عليها، وانما تجتاز بها، فان كانت واقعة على سنن طريقهم قال الذي له ارب لصاحبه أو أصحابه قف وقفاً، وقفوا وان لم تكن على سنن الطريق قال: عوجاً وعرجاً وعوجوا، وعرجوا.

واذا عرجوا كان التعريج أشق على الركب والركاب من الوقوف، لأن لها في الوقوف راحة، والتعريج فيه زيادة في تعبها، وان قلت المسافة ويعقب الامدي على ذلك اي اسلوب الوقوف على

---

[1]- ادب العرب في عصر الجاهلية – حسين حسن / ٥٧.
[2]- الطبيعه في الشعر العربي – د. نوري القيسي/٢٥٤
[3]- ادب العرب في عصر الجاهليه / ٥٦.
[4]- الموازنه بين شعري أبي تمام والبحتري / ٤٠٩-٤١١.

ومناجاتها. ((ثم أنا ما علمنا أن احداً قصد داراً عفت من شقة بعيدة واحداً كان أم في جماعه للتسليم عليها، والمسألة لها، ثم انصروا راجعين من أين جاءوا، فأن هذا ما سمع به، ولا هو من أغراضهم، أذ ليس فيه جدوى ولا يؤدي فائدة، لان المحبوب ان كان حياً موجوداً فقصد رباعه ومواطنه التي كان هو قاطنها والالمام به فيها أولى وأجدى. وان كان ميتاً فالالمام بناحية الارض التي فيها، حفرته اولى واحرى، وعلى انهم لايكادون يزورون القبور، وانما وقفوا على الديار، وعرجوا عليها عند الاجتياز بها والاقتراب منها، لانهم تذكروا عند مشارفها أوطارهم فيها فنازعتهم نفوسهم الى الوقوف عليها والتلوم بها ورأوا أن ذلك من كرم العهد وحسن الوفاء))

وهذا مخطط توضيحي لصورة الوقوف على الديار التي موقعها على سنن الطريق[1] كما تصورها أمرؤ القيس في مطلع معلقته:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى بينَ الدخولِ فحوملِ[2]

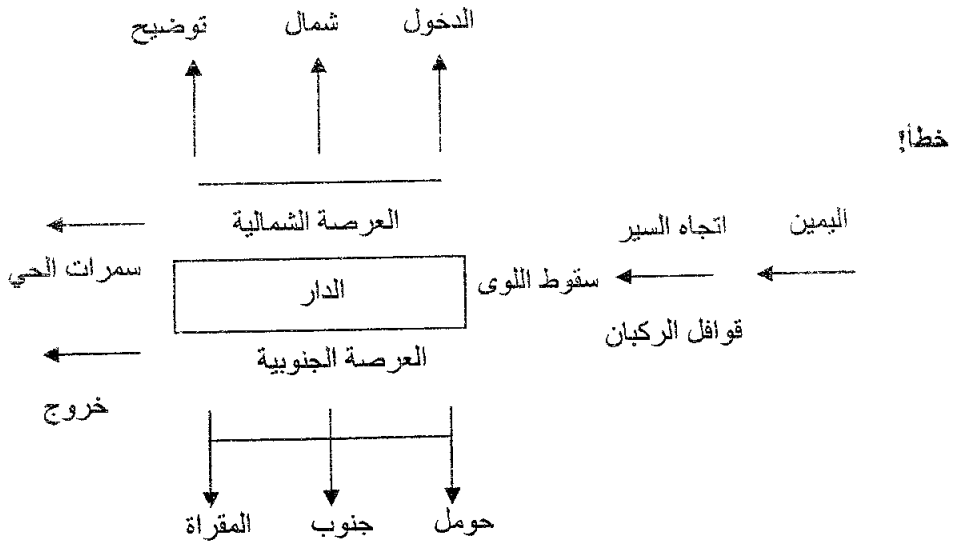

[1] - في التذوق الجمالي لمعلقة أمرىء القيس/ محمد علي /٢٠.
[2] - ديوان أمرىء القيس/ ٨.

واذا كانت أطلال ديار حبيبة أمرىء القيس واقعة على سنن طريق رحلته الأمر الذي دعاه لان يقف ويستوقف معه أصحابه ليبكوها وليحيوها ، اذ لم يجدوا مشقة في ذلك ، بل أن التوقف حدث اثناء الاجتياز فأن النابغة الذبياني دعاهم لان يعوجوا الى دمنة حبيبته (نُعم) بعد أن يميلوا عن طريق الاجتياز وفي ذلك زياده مشقه وكلالة ، وان كانت المسافة التي عوجوها نحو الدار قليلة ، ونتصور اطلال النابغه أولاً .

ولنعقد مقارنة بينها وبين اطلال امرىء القيس ثانياً في هذه المعاني يقول النابغة[1]:

عوجوا ،فحيوا لنُعم دمنة الدارِ ماذا تحيُّون من نوي وأحجارِ

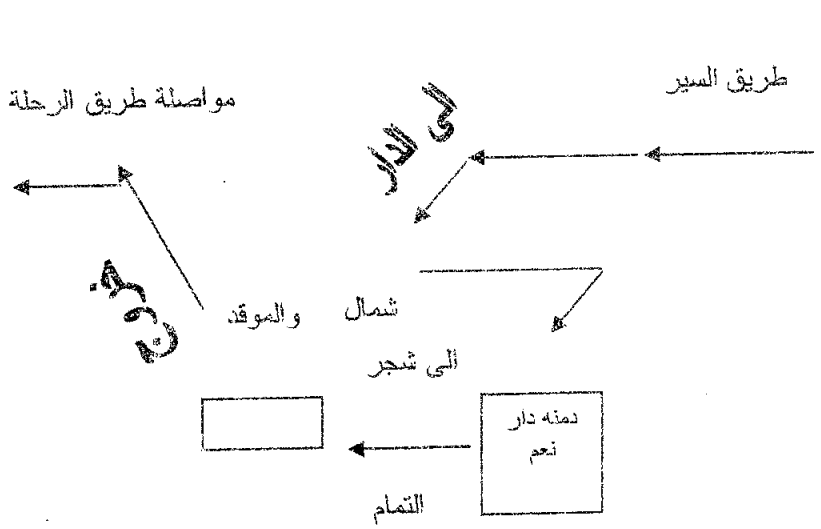

أن النابغة الذبياني لم يقف على ديار حبيبته ليبكيها كما بكاها أمرؤ القيس لكنه وقف ليحييها مع اصحابه ووصف اطلالها من نؤي وأحجار المواقد وأشجار التمام. وكان امرؤ القيس اكثر تحديداً لمعالم اطلاله من النابغة ، اذ لم يحدد الاخير مواقع اطلاله الى جهة سيره أهي ليمين الطريق أم يساره؟ وأدار الشاعر حديثاً بينه وبين حبيبته وكأنها واقفه قبالته وهما يتبادلان الحديث بل يصر على رؤية (نُعم) هو

[1]- ديوان النابغه الذبياني/ ٤٨.

واصحابه برغم ما بهما من عجلة لمواصلة المسير، إذ شدت الاكوار على العيس . وقد راعه وافزعه هذا اللقاء القصير والنظرة العجلى لدمن الحبيبة، اذ يقول[1]:

رأيتُ نُعماً وآصحابي على عجل والعيُس للبين قَدَ شُدت بأكوارِ

فريح قلبي، وكانت نظرة عرضت حيناً، وتوفيق أقدار لاقدار

رائد المقدمه الطلليه

ليس من السهولة الوقوف على رأي قاطع فيما يتعلق بريادة المقدمة الطللية وذلك لان المصادر القديمة لاتسعفنا بما يفضي الى الوصول الى راي يجلو غوامض المسألة بدقة، ولكن ينبغي السعي كي نقرب الى ما يسوغه لنا استنطاق المصادر وتجميع شذراتها لنكون من ذلك صورة ريادة المقدمة الطللية: ان اول اشاره حول المقدمة الطللية جاء بها ابن سلام ذلك في عرض تقديمه لامرىء القيس. وتفضيله على اقرانه من الشعراء اذ قال[2]: (ليس انه قال ما لم يقولوا ولكنه سبق العرب الى اشياء ابدعها استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء، منها استيقاف الصحب والبكاء على الديار). واشار باحث حديث الى ما تعارف عليه القدماء من ريادة بكاء الديار الى ان شاعراً سبق أمرىء القيس في ذلك، وانه حاكاه ويورد بيت امرىء القيس[3]:

عوجاً على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خزام

وتعرض هذا الباحث في حديثه على المقدمة الطللية الى استعراض آراء القدماء وتعقب ارائهم واقوالهم في من بكى الديار ويتخلص الى ان ابن خزام ممن بكى الديار قبل امرىء القيس... ويزعمون انه اول من بكى الديار[4]. وقد عده من الاوائل في هذا النوع من المقدمات[5] وكذلك امرىء القيس[6] الذي

---

[1] ـ نفسه.
[2] ـ طبقات فحول الشعراء / ٢٧.
[3] ـ ديوان امرىء القيس /١١٤.
[4] ـ مقدمة القصيده العربية في الجاهلية د. حسين عطوان /٧٣.
[5] ـ نفسه /٨٠.
[6] ـ نفسه.

ابدع في مقدمة معلقته التي صور فيها اطلال محبوبته وهذا ما نتناوله في السطور التالية عند حديثنا عن تطور المقدمات.

ونشاطر هذا الباحث الرأي في أن ابن حزام وامرىء القيس من الاوائل في هذا الفن ومن هذا كله لانرى طائلة من البحث عن رائد المقدمة الطللية، أذ البحث عن بدايات الاشياء أصبح من الامور التي تدخل في نطاق الغيبيات التي لايعلمها الا الله وتبقي بدايات الاشياء مفتوحة للتأويلات، ونأخذ بما توصل اليه قديماً وحديثاً اعتماداً على المتوافر من النصوص الموثقه التي جعلت امرىء القيس الرائد لذلك لايتداعه اشياء لم يسبق اليها ووافقه العرب عليها.

علاقة المقدمه الطلليه بالقصيده

مقدمة القصيدة ظاهرة كبرى في شعرنا العربي القديم[1]، ولذا فقد انصرفت عناية الشعراء الى الاهتمام بمطالع قصائدهم، وذلك لانها (اول ما يقابل الاسماع فلابد للشاعر من تجويدها)[1] ولذلك مدح النقاد للشعراء مطالعهم الحسنة التي تكون واضحة وبسيطة المأخذ، كما لاحظوا العلاقه بين مطلع القصيدة وموضوعها اي مهدوا تناسبهما، وفي هذه المعاني ينقل ابن قتيبه رأياً يقول فيه: (وسمعت بعض اهل الادب يذكر أن مقصد القصيد انما ابتدأ بذكر الديار والدمن والاثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر اهلها الظاعنين... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف اليه الوجوه، وليستدعي به اصغاء الاسماع اليه، لان التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب نفوس العباد من محبة الغزل والف النساء ، فليس يكاد يخلو من ان يكون متعلقاً بسبب وضارباً فيه حلال أو حرام، فأذا علم أنه استوقف من الاصغاء اليه والاستماع له عقب بايجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا التعب والسهر، وسرى الليل، وحر الهجير، وانضاء الراحلة فأذا علم انه قد اوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده

---

[1]- مقدمة القصيدة في النقد العربي القديم – يوسف حسين بكار/ ٢١٢.

ما ناله من المكان في المسير بدأ المديح فبعثه على المكافاة وهزه للسماح)[٢]. ويعقب على ذلك: (فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين الاقسام ولم يجعل واحداً منها اغلب على الشعر) ان هذا النص يوضح ان المقدمه تتألف من الوقوف على الاطلال والغزل والرحلة ولا نرى جعل الرحلة من المقدمة التي ينبغي ان حسنة جزلة دالة على الغرض وجديره به).

ويمكن القول: ان اجزاء المقدمة المذكورة تصور صفحات من حياة الناس لذلك العصر ، فالشاعر حين يقف يستحضر ذكرياته ويعود لايامه فيثير في نفسه انواعاً من الاسى الى مخاطبة هذه الديار ومناجاتها ووصف آثارها وتصور ما كان يرى ويتحرك عليها من انسان وحيوان فهو يعبر عن احساساته وعواطفه نحو هذه الآثار التي الوطن المهجور.

ففي هذه الابيات الثلاثه يقف إمرؤ القيس على آثار محبوبته التي تقع على سنن الطريق ويلتمس صاحبه أو صاحبيه الوقوف ليشاركاه البكاء على حبه القديم في هذه الاطلال التي تعاقبت عليها ريحا الجنوب والشمال، ولكنها لم تعفُ رسمها ، فكلما رمسته هذه ودفنته – بما هالت عليه من الرمل – سفرت عنه الاخرى. وقد انتشرت في ساحة اطلال الحبيبة الراحلة اثار الظباء التي جعلتها مرتعاً لها. وما أن ينتهي الشاعر من تشخيص أطلال الحبيبة حتى يعود الى استقراره وهدوئه وتعود الي ذاكرته صورة رحيل المحبوبة، وهو واقف قرب أشجار الحي الشائكة يذرف الدموع على فراقها ، فيقف أصحابه للتخفيف عنه، وهم يقوون عزماته ويشدوا أزره، ويمسحون دموعه، لكنه عنهم مشغول في ادارة الصراع الذي يعتمل داخله بين عاطفة تدفعه للبكاء وعقل يدعوه للتحكم في عواطفه مبيناً له أن لا فائدة من البكاء، فيقول[٣]:

---

[١]- الشعر والشعراء – ابن قتيبة ١/٧٤ – ٧٦.
[٢]- نفسه ١/٧٥-٧٦.
[٣]- الديوان/ ٩.

كأني غداة البينِ يَوم تحملوا لدى سمراتِ الحي ناقفُ حنظلِ[1]

وفوقاً بها صحبي علي مطيهمِ يقولونَ لا تهلك أسىً وتــجملِ[2]

وان شفائي عبرة مــهراقةُ فهل عند رسم دارسٍ مِن معّولِ[3]

ولكن ذكريات الماضي السعيد، والايام الجميلة الخالية، بما فيها من حب ممتع، ومتعة محبوبة تعود له لتكشف ما تضمه جوانحه من صراع فتنتصر العاطفة على العقل، وتذرف عيناه الدموع غزيرة، اذ

يقول:كدأبك من أم الحويرثِ قبلها وجــارتها أم الــرباب بمــأسلِ[4]

ففاضت دموع العين منى صبابة علي النحر حتى بل دمعي محملي[5]

وما ان يختتم الشاعر مقدمة معلقته بوصف الاطلال والبكاء عليها حتى يستعيد ذكريات أيامه الحلوة واصفاً علاقاته السعيده مع عدد من النساء، اذ يصور ما كان له من مغامرات، فيقول:

آلاَرُبَ يوم صــالحٍ لك منهم ولا سّيما يــوٌم بدارةِ جلجلِ[6]

ويومَ عقرت للعذارى مطيتي فيما عجباً من رحلها المتحملِ[7]

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتلِ[8]

لقد استمد الشاعر صوره البسيطة من البيئة التي يحيا فيها ورسمها رسماً مباشراً دون زيــادة أو تغيير أو تزييف. وهكذا وضع أمرىء القيس اسس المقدمة الطللية، ورسم المنهج الــذي ينبغــي أن يسير عليها من يأتي بعده من الشعراء. ونجمل اقسام المقدمة الطللية أو عناصرها كما طبقها أمــرؤ

---

[1] ـ البين : الفراق ، السمرات :شجر شائك ، ناقف حنظل : الذي يستخرج حبه ولابد أن تدمع عيناه.
[2] ـ المطي :الابل ، الاسى : الحزن ، تجمل : تصبر.
[3] ـ مهراقة : نازلة ، رسم دارس : لم يبق منه شيئ ، معول : مكان بكاء.
[4] ـ الدأب : العاده ، مأسل: مكان ، والمعنى بقيت من وقوفك على هذه الديار وتذكرك اهلها كما بقيت من ام الحوبرث وجارتها اي اصابك التعب.
[5] ـ الصبابه: رقة الشوق ، والمحمل: الذي يحمل له السيف.
[6] ـ جلجل: مكان.
[7] ـ الرحل: ما يوضع على الناقة للركوب.
[8] ـ يرتمين: يتناولن، الدمقس: الحرير.

القيس في معلقته، أذ وقف وأستوقف، وبكى واستبكى، وحدد المنازل التي وضعها، وحياها متحدثاً عما غيَّرها، واثنى عليها وأشاد بها، واستعاد ذكرياته الحلوة التي كانت له مع صاحباته. وكما وصف أمرؤُ القيس أطلال محبوبته وما يتصل بها من ذكريات، فكذلك فعل طرفة بن العبد في معلقته، لكنه ركز وصفه لرحيل المحبوبه اكثر من تركيزه لوصف أطلالها، كما يظهر في أبيات المقدمة، أذ يقول[1]:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد[2]

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون: لا تهلك أسى وتجلد[3]

كان حدوَج المالكية غدوةَ خلايا سفين بالنواصف من دد[4]

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً او يهتدي[5]

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسَّم الترب المفايلُ باليد[6]

ففي مقدمة طرفة بن العبد جاء الحديث عن الاطلال في البيتين الاول والثاني ثم انتقل الى وصف رحيل الحبيبة في بقية الابيات، وسبق وان أشرنا عند حديثنا عن أقسام المقدمة الى انها ليست صورة ثابتة وواحدة عند شعراء التأسيس في العصر السابق للاسلام، بل هي صورة عامة تختلف جزئياتها من شاعر الى آخر في طريق العرض واختيار المواقف، وفي مقدمة طرفة تأييد لما جاءت المصادر التي اشرنا اليها.

طور المقدمه الطلليه

---

[1] ـ ديوان طرفه بن العبد ٢١ـ٢٢.
[2] ـ برقه: رابية، ثهمد: اسم موضع.
[3] ـ الحدوج: جمع جدح وهم مركب النساء، المالكيه: منسوبة الى مالك بن سعد، الخلايا: السفين.
[4] ـ النواصف: الرحبة الواسعة ، دد : اسم مكان .
[5] ـ عدولية : منسوبة الى جزيرة من جزائر البحر ، ابن يامن : ملاح من أهل هجر .
[6] ـ حباب الماء : امواجه ، امواجها : صدرها ، المفايل الذي يقسّم التراب .

حـين تحدثنا عن أقسام المقدمة الطللية وجعلنا أمرأ القيس من الاوائل الذين اسسوا لهذه المقدمة، اذ

وصف الاطلال ورسوم الديار وقد رمستها ريح وكشفتها أخرى تعاكسها الهبوب، ورسـم بَعْـرَ الآرام وقد توزع كالأنظمام في عرصاتها وكأنه – في كثرته – حب فلفل. وقد أثارت هذه الظـواهر في بيئته الاطلال لواعج نفسه وكوامن قلبه فأثارت عاطفة الحزن العميق فَعبَرت العيون بما ذرفتـه من دموع لا فائده ترجى منها لان مزار الحبيب بعيد[1] ولنا نتسأءل هل شارك الشعراء الاخـرون ممن عاصر الشاعر والصورة والطللية التي أبتدأ بها أمرؤ القيس في مقدمة معلقته ؟ وجواباً عـن سؤالنا هذا فسوف نتناول معلقة زهير بن أبي سلمى.

لقد وجدت المعلقة الطللية هوى في نفوس الشعراء الجاهليين اللاحقين لامرؤ القيس، وأصـبحت تقليداً فنياً ثابتاً يحرصون على أبتداء قصائدهم به فلم تعد عملاً آنياً، بل اصبحت عملاً يصنع بدقـة كبيرة وأحكام شديد ويفرغ له صاحبه فراغاً يتأني في صنعه اناة تحقق له ما يطلبـه مـن الكمـال لقصيدته ويبذل لذلك جهداً ومعاناة كبير من يحقق بذلك مستوى فنياً ممتـازاً لمقدمـة قـصيدته، اذ يقول[2] :

أمن أم أوفى دمنة لم تـكلم بحومـانة الـدراج فالمتـثـلم[3]

ودار لها بالرقـمتين كانها مراجيع وشم في نواشر معصم[4]

وقفت بها من بعد عشرين حجة ولأيا عرفت الدار بعد توهم[5]

بها العينَ والآرام يمشين خلفة واطلاؤها ينهض من كل مجثم[6]

---

[1]- الوصف – سامي الدهان/ ٣٠.
[2]- ديوان زهير / ٧٤.
[3]- أم أوفى : اسم امرأه ، الدمنة :الآثار ، الحومانة : المكان المرتفع ، الدراج والمتثلم : موضعان .
[4]- الرقمتان : مكان ويقال روضتان فيجد ، مراجيع الوشم : المكرر ، النواشر : العروق ، الوشم .
[5]- لأيا : بطئاً.
[6]- الاثافي : حجارة القدر ، السفع : السود ، معرس المرجل : موقعه ، النؤى : الحاجز ، الجثم : البقية

أثافي سفعاً في معرّس مرجل ونؤيا كجذم الحوض لم يتلـثم[1]

فلما عرفت الدار قلت لربعها الاعم صباحاً أيها الربـع وأسلم

لقد عرض زهير في مقدمة معلقته الى اطلال صاحبته وذكرها اسمها مكنى (أم اوفـى) بعـد عشرين من سنين الفراق وبعد ان تيقن منها بعد جهد، لان الزمن غيرّ معالمها ، راح يصف معالمها التي أصبحت كأنها الوشم في عروق المعصم ، كما وصف الحياة المتحركة في هـذه الاطـلال اذ صارت موطناً للآرام ومرتعاً لبقر الوحش ينتقلن فيها من مكان الى اخر ، وتفرس الشاعر فيما بقي من آثار الحبيبة من الاثافي والنؤى وموضع المرجل وقد تقلبت عليها الرياح السوافي فغيَّرت الوانها ومعالمها حتى صارت كبقية الوشم في ظاهر اليد ، وبعد أن تأكد من أنها ديار الحبيبه راح يرسـل سلامه وتحياته داعياً لها بالسلامه وطول البقاء كي تستمر صورتها الباهته الالوان والمعالم تداعب خياله باحلى الذكريات التي انمحت بعد العشرين من السنين[2].

ولكي تتواصل ما جاءت به الصورة الشاخصة لمقدمة القصيدة تنقل الشاعر الى تشخيص صورة بل يعيد خيالها الى ذاكرته صورة رحلة الظعائن وهن يتنقلن في شعاب الصحراء من مكان الى اخر ، وقد رفعن فوق مطاياهن الانماط العتاق والكلل ذات الحواشي الوردية ، وفتات الصوف المصبوغ يتساقط من هوادجهن ، وقد بلغن وادي الرس بطبيعته الخلابة ، وقد نصبن خيامهن لتـشكل منهـا منظراً جميلاً، اذ يقول[3] :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم[4]

---

[1]- لم يتلثم : لم يبق من شيئ.
[2]- الوصف/ ٣٠.
[3]- ديوان زهير بن سلمى / ٧٦ .
[4]- العلياء : بلد ، جرثم : عين ماء .

جعلن القنان عن يمين وحزنه وكم بالفنان من محل ومحرم[1]

وعلون بانـماطٍ عتاقاً وكـلةٍ وراد حواشيها مشاكسة الدّم[2]

ظهرن من السوبان ثم جزعنه على كل قبيني فشيب ومفأم[3]

فالمقدمة الطللية ليست تقليدا في اساسها ،كالذي صارت اليه عند الـشعراء فـي عـصورالادب العربي اللاحقة من أمويين وعباسيين، بل حياة عاشها الشعراء واماني لذكريات. فالشعر عند شعراء تاسيس المقدمة صادق المشاعر ينبع من المشاعر الدافقة للنفس الملأى بالمشاعر والاشـواق التـي تمتزج امتزاجاً قوياً بهذه الاطلال . ولذلك تفيض نفس الشاعر بالعواطف وتمتلىءصدره بخوالج من المشاعر المبهمة وتذوق عيناه الدموع للذي تثيره الاطلال في نفسه من ذكريات. من ذلك ما عبرت مقدمة عنتره الطللية ، اذ يقول[4]:

[1]- القنان : اسم جبل ، المحل: الذي ليست له ذمه ، المحرم : الذي له ذمه.
[2]- عالين: رفعن، الانماط : ثياب من الصوف تطرح على الهوادج، العتاق: الكرام، وراد: لونها احمر، العندم: ثمر احمر.
[3]- السوبان : اسم واد ، جزعنه : قطعنه ، قيني : منسوب الى بني قين(قبيلة) ، فشيب : جديد منأم : واسع والمراد هنا الهودج.
[4]- شرح المعلقات – العشر – التبريزي / ٣١٧-٣٢٥.

هل غادر الشعراء من مستردم أم هل عرفت الدار بعد توهم(١)

يادار عبله الجواء تكلمي وعمى صاحاً دار عبلة واسلم(٢)

فوّقفتُ فيها ناقتي وكأنها فدْن لأقضي حاجة المتلوم(٣)

وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتثلم(٤)

حييت من طلل تقاوم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم(٥)

حلت بأرض الزائرين فأصبحت عسراً علي طلابك أبنه مخرم(١)

علقتها عرضاً وأقتل قومها زعماً لَعَمْرُ أبيك ليس بمزعم

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

ففي هذه المقدمة الطللية يخاطب عنترة اطلال عبلة ويناجيها ملقياً عليها تحية الصباح ويوقف ناقته حتى يمضي أوقاتاً يستعيد فيها ذكرياته مع عبلة التي رحلت عن مكانها لتحل الان في مكان آخر بعيد عن تلك الاطلال . لاجل ذلك وبعلاقة من ترابط المعاني وتداعي الافكار يحيي هذه الاطلال التي مضى عليها فاصبحت موحشه مقفرة خالية بعد أن غادرتها حبيبته راحلة الى مكان آخر ليس سهلاً الوصول اليه. ويقر عنترة أنه احب عبلة . وهكذا صور عنتره مقدمته الطللية. هذه صفحه من صفحات الحياة وذلك حين وقف عند أطلال حبيبته مستحضراً ذكريات الايام وما فيها من صبابة وشوق وما اثارته تلك الدار في نفسه من أنواع الاسى والحنين.

١- غادر : ترك ، المتردم :أي يصلح لم يكونوا اصلحوه.
٢- الجواء :بلد في ديار عبس ، عمي : أي انعمي أي أنعم الله عليك وادامك سالمه.
٣- الفدن :القصر ،المتلوم :المتعرض للائمة بسبب فعل ما.
٤- أقوى : خلا او اقصر.
٥- الزائرين : الاعداء ، ابنه مخرم : عبلة.

أقسام المقدمة الطللية

عندما اراد النقاد ان يضعوا للمقدمة أقسامها نظروا اليها من خلال القصيدة الجاهلية التي استمدوا منها قواعدهم، وبنوا عليها أصولهم [٢]، ولابن قتيبة نص أخذه عنه بعض الادباء يذكر فيه: (أن مقصد القصيدة انما أبتدأ بذكر الديار والاثار، فبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ... وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة [٣] فمن هذا النص يتبين لنا أن المقدمة الطللية تتألف من الوقوف على الاطلال والغزل والراحلة [٤]، وبمعنى أخر يمكننا القول ان المقدمة الطللية صورة بسيطة من صور حياة العربي ، وهي تسجيل لمظاهر الطبيعة، اذ هي تتناول الكلام عن آثار الحبيبه المغادرة ديارها التي اصبحت مقفرة بعد ما تركها قاطنوها، وما شاهده صاحبها فيها من أطلال الحياة السابقة التي كانت تتحرك عليها ايام كانت آهلة بسكانها قبل ان تتحول بعد رحيلهم عنها الى اطلال موحشة تتعاورها ريحا الصبا والجنوب فتكشف احداهما عما غطته الاخرى ويصف الشاعر مظاهر الحياة المتحركة بما فيها من اسراب الطيور والحيوانات كالظباء والبقر الوحشي التي تروح وتغدو في مسارح تلك الاطلال آمنة مطمئنة حيث لا أحد يثيرها أو يفزعها، وهذا يثير عاطفته فيتذكر حبيبته البعيدة، فيرسم صورتها في مخيلته، إذ يتناول أوصاف جسمها وعاطفته التي تتشوق للقائها، فهو يشخّص عواطفه الفرحة والحزينة ، واماله ويأسه وحرمانه، وحين يعود الى نفسه هدوؤها بعد ما يستيقظ من نشوة الالتقاء بخيال الحبيبه يسكب الدموع ويذرفها.

١ـ علقتها :أحببتها .
٢ـ مقدمه القصيده ٢١٢
٣ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبه ١/٧٤ـ٧٥
٤ـ مقدمة القصيده / ٢١٣

واذاً فأقسام المقدمة كما بدت لنا من خلال النصوص ليست صورة ثابتة شكلاً ومضموناً لدى شعراء العصر السابق للاسلام الذين جاءت قصائدهم مبتدأة بالاطلال كلها صورة عامة تختلف جزيئاتها من شاعر لاخر في طريق العرض أو اختيار المواقف، ولأننا ووفقاً لما مدتنا به النصوص جعلنا أمرأ القيس من الاوائل الذين اسسوا المقدمة الطللية فأننا نتناول تلك المقدمة بالتحليل، اذ يقول [1] :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضحَ فالمقراةِ لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل

تَرَى بعَر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل[2]

ووركن في السوبان يعلون متنه عليهن دل الناعم المتنعم[3]

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حبّ الفناء لم يحطم[4]

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للفم[5]

فلما وردن الماءزرقاً جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم[6]

وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم[7]

في الابيات التسع التي أعقبت المقدمة الطللية جاءت تطويراً لها ، حيث أحكمت الصورة الأولى التي أدارها زهير حول بيئته أطلاله الثابتة والمتحركة والشاعر متمكن من فنه الشعري يعرف مبدأه ومنتهاه، ويجيد أستعمال الالوان والاحداث والازمان ، فأطلال المحبوبة تبدو له كالوشم المكرر في عروق المعصم . أما الاطلال فقد صارت مسرحاً للبقر الوحشي والظباء ، والاثافي ما تزال في

---

[1] ـ ديوانه ٨.
[2] ـ الآرام : الظباء ، عرصاتها : ساحاتها
[3] ـ وركن :ملن ، الدل : حسن الهيأه .
[4] ـ العهن : الصوف الاحمر ، الفنا : شجر ثمره حب أحمر .
[5] ـ استحرن : سرن سَحَراً (اي وقت السحر) .
[6] ـ المتخيم : المقيم .
[7] ـ المتوسم : الناظر بتفرس .

مكانها، والثوى ما يزال قائماً كأنه بقية حوض ، والكلل وردية الحواشي ، وفتات الصوف أحمر ، والماء أزرق . وقد صاغ الشاعر كل ذلك صياغة قوية محكمة فيها كثير من الاناة والتروي، اذ هو (رأس مدرسة الصنعة).

لقد أستطاع الشاعر بما ملكه من الموهبة والخبرة أن يختار الالفاظ المعبرة ويستخدم أزمنة الافعال متنقلاً بها من الماضي الى المضارع لتتم الملائمة بين الزمن والحدث ، فأذا تحدث عن الاطلال استخدم الزمن الماضي الذي يلائم السرد القصصي ، اما حين يتحدث عن العين والآرام التي رآها بين الاطلال أو حين يطلب من صاحبه أن يتأمل معه الظعائن الراحلة فيستخدم الفعل المضارع ليبث الحياة في الصوره التي يرسمها . كما انه يغاير بين اساليب التعبير متنقلاً بين الخبر والاستفهام والطلب والتعجب من اشاعة تلك الحركه الموسيقيه في الابيات.

ومن المشاهد الجميلة التي حفلت بها معلقة زهير مشهد الاطلال الذي يظهر فيه البطل وهو الشاعر ، ومشهد الرحلة الذي تظهر فيه البطلة وهذان المشهدان ظهرا في مقدمة ورحلة معلقة أمرئ القيس الا انه لم يتمكن من أخرجهما بذلك الاخراج البارع الذي كان عليه زهير.

ومن صور التطور عند زهير اختفاء ظاهرة البكاء ، فقد وقف على اطلال حبيبته هادئاً رزيناً يتأمل ما حل بها ، كما اختفى الرفيقان ليحل محلهما رفيق واحد عند حديثه عن رحلة الظعائن ، اذ أبتدأ به رحلته، اذ يقول:

تبصَّر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء فوق جرثم

ومثلما وصف أمرؤ القيس وزهير بن سلمى الاطلال فكذلك لبيد بن ربيعه اذ رأى أن حججاً كثيرة تقلبت عليها فصارت مسرحاً للظباء والبقر الوحشي والنعام ، كما اتخذتها الاوابد مرتعاً لها بعد ان كانت مواقع للحركة والجمال وقد تعاورتها الرياح والسيول فكشفت عن كنوزها القديمة حتى صارت تشبه كتب تقادم عهد كتابتها ، فجدد الكاتب سطورها ، أو كانها وشم ذهب أثره في اليد ،

فاعادت المرأه شكله بالكحل . وما ان بدت هذه الدار واضحة المعالم بعدما كشفتها الريح حتى عادت للشاعر ذكريات الاحبة الذين كانوا قد استوطنوها من قبل بعد غياب طويل ، فخاطبهم وناجاهم وساءل الديار عنهم ولكن لا كلام ولا جواب ، ولكن شدة الوجد والهوى يخيلان للانسان مالم يقع وفي هذه الابيات المعاني يقول لبيد:[1]

عفت الديارُ محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامُها[2]

فمدامع الريانُ عرّي رَسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها[3]

دمن تجرم بعد عهد انيسها حجج خلون حلالها ومرامها[4]

رزقت مرابع النجوم وصابها ودق الرواعد جودها فرهامها

من كل سارية وغاد مدجن وعشيه متجاوب ارزامها[5]

فعلاً فروع الايهقان واطفلت الايهقانِ ظبأؤها ونعامها[6]

والعين ساكنةٌ على أطلائها عوذاً تأجل بالفضاء بهامها[7]

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها[8]

او رجعُ واشمه اسف نؤورها كففاً تعرض فوقهن وشامها[9]

---

[1] ـ عفت: درست ، المحل: حيث يحل القوم من الدار لايام معدوده، المقام: حيث طال مكنهم فيه، منى: جبل، تأبد: توحش، غولها: اسم موضع بضاف الرجام .

[2] ـ مدامع: المجاري، الريان: اسم وادي، عرّي رسمها. خلقاً: ارتحل عنه فعري بعد ان اخلق لسكنهم اياه، الوحي: جمع وحي وهو الكتابة، السلام: الحجاره، المفرد سلمه والمعنى: كأن ما بقى من رسوم الديار بعد ان عربت يشبه ما يبقى من الكتابه في الحجاره.

[3] ـ الدمن: جمع دمنه وهي آثار الناس وما سودوا بالرماد، تجرم: انقطع ومضى، الانيس: السكان، الحجج: السنين، الحلال: شهور الحلّ وهي ثمانية، الحرام: الشهور الحرام.

[4] ـ رزقت وعالها، صاحبها: جادها ونزل عليها، رهامها: المطره الضعيفه.

[5] ـ السارية : السحابة التي تجيئ ليلاً ، الغادية : التي تأتي الغداة ، المدجن : ذو الغيم المتلبد المتكاثف سحابة عشية : جاءت عشاءً ، الارزام : حنين الناقة.

[6] ـ الايهقان : جرجير البر ، الجهلتان : جانبا الوادي .

[7] ـ العين : البقر ، ساكنة : آمنه مطمئنة ، الاطلاء : الاولاد، العوذ: التي نتجت حديثاً ، تأجل : تجتمع فتصبح اجلاً اي قطيعا ، الفضاء : المتسع ، البهام : جمع بهيمه وهي من اولاد الضأن .

[8] ـ جلا : كشف ، الطلول : ما شخص من آثار الدار ، زبر : جمع زبور وهو الكتاب ، متونها : ارساطها وظهورها ، تجدمتونها اقلامها : تعيد الكتابه عليها بعد ان درست .

[9] ـ الرجع: الترويد مره اثر مره، الواشمة: التي تشم يديها تضربهما الابرة ثم تحشوهما بالنؤور. اسف : سقى وذر عليه النؤور ، النؤور : مادة الوشم ، الكفف : جمع الدارة او الحلقة ، تعرض : أخذ يميناً وشمالاً دون قصد ، الوشام : جمع وشم شبه سواد الديار بالوشم .

فَوَقفتُ أسألها وكـيف سؤالنا صَمّاً خوالد ما يبين كلامها[1]

عريت وكأن بها الجميع فابكروا منها وغودر نؤيها ونمائها[2]

ويرسم النابغه الذبياني لاطلاله صورة نابضة بالحيوية ، فبعد ن ان كانت عامرة باهلها الـذين غادروا صارت مجالس للحيوان ومعالفه والخادم ، وقد خلت تلك الاطلال السبيل للماء المنهمر الذي غمر ساحة الدار وما حولها ، وبلغ الاثافي ، اذ يقول[3] :

يادار مـيه بالـعلياء ، فالسـند أقون وطال عليها سالف الابد[4]

وقفت بها أصيلانا أسائلـها عيت جواباً وما بالربع من أحد[5]

الا الاواري لايا ما أبيـنها والنوى كالحوض بالمظلومه الجلد[6]

ردت عليه أقاصـيه ولـبده ضرب الوليده بالمسحاة في الثأد[7]

جلت سبيل أتي كان يحـبسه ورفعته الى السجفين والنضد[8]

مسى خلاءً وامسى أهلها أرتحلوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد[1]

ورأى المرقش الاكبر اطلاله مقفرة ، وقد ارتحل اهلها مساءً لانهم اناس منعمـون لا يحتملـون الظعن نهاراً ، اذ ان شدة الشمس وحرارتها تؤثر على أجسادهم المترفة ، فعمرت الوحوش المكان

---

[1]- الصم : الصخور ، الخوالد : البواقي .
[2]- عريت : خلت فلم يبق بها احد .
[3]- ديوان النابغه الذبياني ٣٠-٣١
[4]- مية : امراه ، العليا : مكان مرتفع من الارض ، السند : ما قبلك من الوادي وعلا من السفح . أقوت : خلت من أهلها ، السالف : الماضي ، الابد : الدهر .
[5]- الاصيلان : تصغير أصلان ، الواحد : أصيل ، العشي، عيت : عجزت،الربع : المنزل .
[6]- الأواري : واحدها آري : الاخية التي تشد بها الدابة ، اللأي : الشدة النوى : ساقيه صغير تجعل حول الخناء لئلا يصل الماء ، المظلومة : الارض التي حفر فيها حوض ولم تستحق ذلك ، الجلد : الارض الغليظه .
[7]- أقاصيه : الواحد اقصى وهو ما شذ منه وبعد ، لبده : الصق التراب ببعض ، الوليده : الخادمة الشابه ، ضربها بالمسحاة : الاصلاحه الثأد : البلل والندى .
[8]- الاتي : السيل الذي لا يدري من اين يأتي ، السجفان : ستران رقيقان يكونان في مقدمة البيت ، النضد : ما ينضد من المتاع .

جاعلة منه مسرحاً لحركاتها ترعى منه العشب وتمرح في الارض كانها رجال من العجم وهم يختالون في قلانسهم اذ يقول في ذلك:[٢]

هل تعرف الدار عفا رسمها الا الاثافي ومبنى الخيم[٣]

اعرفها داراً لاسماء ذالـ ـدمع على الخدين سح سجم[٤]

أمست خلاء بعد سكانها مقفره ما ان بها من أرم[٥]

الإمن العين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكحم[٦]

ومن الاوصاف الرائعه للاطلال الخالية مقدمة قصيدة لاحد الشعراء المغمورين للعصر الجاهلي ، اذ شخص ذلك الطلل وبين فعل الحدثان فيه وتعاقب الغيوم عليه حتى أحالته الى صورة تشبه فعل الاصباغ في زخارف البيوت ، او تشبه رسم الكاتب يخلف رسوماً دقيقه وأشكالاً ممتعة بداوته ، وهو يرفع يده ويضعها في هدوء سكون لا تطرف عينه ، ولا يتحرك جفنه ، كانه مأخوذ بما يصنع من رسم وتجبير ، وهذه الصوره الموفقة لم يقع عليها الشعراء المشهورون وجاء ذلك الشعر الذي قدم به لقصيدته ، اذ يقول [٧] :

لمن دمن كأنهن صحائف قفار خلامنها الكثيب فواحف[٨]

فما أحدثت فيها العهود كأنما تلعب بالسمان فيها الزخارف[٩]

بادار مية بالعلياء ، فالسند أقون وطال عليها سالف الابد[١]

١ـ اخنى عليها : غيرها وافسدها ، لبد : زعموا انه نسر كان للقمان بن عاد عمر طويلاً .
٢ـ المفضليات / ٢٢٩ .
٣ـ الاثافي : حجر توضع عليه القدر ، الخيم : بيت يبنى من عيدان الشجر .
٤ـ اسماء بنت عمه عوف بن ضبيه وهي التي كان يعشقها ، السح : الصب ، السجم : السائل .
٥ـ من ارم : من احد .
٦ـ العين : البقر ، الكم القلانس ، شبه البقر بالفرس اذا تبخترت في قلانسها .
٧ـ المفضليات / ٢٨١ .
٨ـ الدمن : جمع دمنه وهي آثار الناس وما سودوا بالرماد ، صحائف : أراد ما فيها من النقش والكتابه ، الكثيب وواحف : موضعان .
٩ـ العهود : هنا الامطار التي يعهد بعضها بعضاً ، السمان : الصباغ التي يزخرف بها في السقوف وغير السقوف .

وقفت بها أصيلانـــاً أسائلـــــها عيت جواباً وما بالربع من أحد[٢]

الا الاواري لايـــا مـــا أبيـــنها والنوى كالحوض بالمظلومه الجلد[٣]

رددت عليه أقاصـــيه ولـــبـــده ضرب الوليده بالمسحاة في الثأد[٤]

جلت سبيل أتي كـــان يحـــبسه ورفعتـــه الى السجفين والنضد[٥]

مسى خلاءً وامسى أهلها أرتحلوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد[٦]

ورأى المرقش الاكبر اطلاله مقفرة ، وقد ارتحل اهلها مساءً لانهم اناس منعمـــون لا يحتملـــون الظعن نهاراً ، اذ ان شدة الشمس وحرارتها تؤثر على أجسادهم المترفة ، فعمرت الوحوش المكان جاعلة منه مسرحاً لحركاتها ترعى منه العشب وتمرح في الارض كانها رجال مـــن العجـــم وهـــم يختالون في قلانسهم اذ يقول في ذلك : [٧]

هل تعرف الدار عفا رسمها الا الاثافي ومبـــني الـــخيم[٨]

اعرفها داراً لاســـماء فالـــ ـــدمع على الخدين سح سجم[٩]

أمست خلاء بعـــد سكانّـــها مقـــفره ما ان بها مـــن أرم[١٠]

أكب عليـــها كاتـــب بداواته يقيم بدية تارة ويخالف[١١]

---

[١] ـ مية : امرأه ، العليا : مكان مرتفع من الارض ، السند : ما قبلك من الوادي وعلا من السفح . أقوت : خلت من أهلها ، السالف : الماضي ، الابد : الدهر .

[٢] ـ الاصيلان : تصغير أصلان ، الواحد : أصيل ، العشي، عيت : عجزت،الربع : المنزل .

[٣] ـ الأواري : واحدها آري : الاخية التي تشد بها الدابة ، اللأي : الشدة النوى : ساقيه صغير تجعل حول الخباء لئلا يسيل الماء ، المظلومة : الارض التي حفر فيها حوض ولم تستحق ذلك ، الجلد : الارض الغليظه .

[٤] ـ أقاصيه : الواحد اقصى وهو ما شذ منه وبعد ، لبده : الصق التراب ببعض ، الوليده : الخادمة الشابه ، ضربها بالمسحاة : الاصلاحه الثأد : البلل والندى .

[٥] ـ الاتي : السيل الذي لا يدري من اين يأتي ، السجفان : ستران رقيقان يكونان في مقدمة البيت ، النضد : ما ينضد من المتاع .

[٦] ـ اخنى عليها : غيّرها وافسدها ، لبد : زعموا انه نسر كان للقمان بن عاد عمر طويلا .

[٧] ـ المفضليات / ٢٢٩ .

[٨] ـ الاثافي : حجر توضع عليه القدر ، الخيم : بيت يبنى من عيدان الشجر .

[٩] ـ اسماء بنت عمه عوف بن ضبيه وهي التي كان يعشقها ، السح : الصب ، السجم : السائل .

[١٠] ـ من ارم : من احد .

[١١] ـ يسوي سطوره ويخالف اخرى ، يجيئ بها غير استواء .

والحارث بن حلزه اليشكري وقف على أطلال حبيبته وأرسل أسفه حسرة حين رأى الديار خالية من أوانسها الفاتنات ، قد عمرتها قطعان البقر الوحشي ببيضاء الظهور تبدو كأشعة الشمس في سطوعها ، سكنتها الجياد فتركت فيها آثار وطئها ومواضع ركضها ، وفي هذه المعاني جاءت قصيده الشاعر[1]:

لمن الديار عفون بالحبس آياتها لمهارف الفرس[2]

لاشيئ فيها غير أصورة لسفع الخدود يلحن كالشمس[3]

أو غير آثار الجياد بأعـ راض الجماد وآيه الدعس[4]

فجست فيها الركب أحرس في كل الامور وكتث ذا حدس[5]

وخلاصة القول : أن جميع الشعراء الذين ذكرنا مقدمات قصائدهم الطللية قد اتفقوا على رحيل القطان عن الاوطان ، واتفقوا بالحيوان الذي حل بالمكان ولكنهم قد أختلفوا في رسم الارض وقد تعاورتها الرياح والامطار والسيول فاصبحت في نظر بعضهم كباقي الوشم في ظاهر اليد أو اختلاط الاصباغ بالاصباغ على يد فنان رسام أو كاتب ملهم ، وكلهم ذكر حياة الاحبة قبل الرحيل فتصور النعيم والترف ، وتصور الاثاث ومراكض الحب ومرابعه ، وهذا ما نراه ونتفق مع من ذكره من مؤرخي الادب العربي.

---

[1]- المفضليات / ١٣٣

[2]- عفون : درسن ، والعفاء : الدروس ، الحُبس : بتثليث الحاء : موضع ، آياتها : أعلامها ، المهارق : جمع مهرق وهي الصحف .

[3]- الاصورة : جمع صوار : القطيع من البقر ، السفع : السود ، كالشمس : لبياض ظهورها

[4]- الاغراض : النواحي ، الرعس : الوطء ،آيته : اثره وعلامته .

[5]- الحدس : الظن ، يريدان اصحابه وقفوا لوقوفه بهذه الديار

مصادر البحث ومراجعه :

- ادب العرب في عصر الجاهلية – حسين حسن ، المؤسسه الجامعيـــة للدراســـات والنـــشر والتوزيع ١٤٠٤-١٩٨٣ .
- الادب اليوناني القديم – عبد الواحد وافي، طبع دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠
- أنوار في دراسات وأبحاث – الحيني محمد جابر، نشر دار القلم، القاهره١٩٦٣
- بناء القصيدة العربية في ضوء النقد الحديث – يوسف حسين بكار، دار الاندلس طبعة ثانية ١٤٠٣-١٩٨٣ .
- جمهرة اشعار العرب – ابو زيد القرشي ، دار المسيرة ١٤٠٣-١٩٨٣ .
- الحيوان – الجاحظ ابو عثمان بن بحر (ت٢٥٥ هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، طبع شركة ومكتبة مصطفى البابي وأولاده بمصر ، طبعة أولى١٩٣٨م
- ديوان امرئ القيس (ت٥٤٠م) تحقيق محمد ابو الفضل ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٧
- ديوان زهير بن ابي سلمى (ت٦٢٧م) دار صادر ، د . ت
- ديوان طرفة بن العبد (ت ٥٦٩ م) شرحه وضبط نصوصه وقدم له فاروق عمر الطباع ، دار القلم . د . ت .
- ديوان النابغه الذبياني (ت ٦٠٤ م) تحقيق وشرح كرم البستاني، د . ت.م.
- شرح المعلقات العشر – التبريزي الخطيب (ت ٥٠٢) حقق اصوله وضبط غرائبه محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبعة ثانية ١٣٨٤-١٩٦٤ .
- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه – يحيى الجبوري – دار التربيه ١٩٧٢ م .
- شعر الوقوف على الاطلال – عزهة حسن ، طبعة الترقي ، دمشق ١٩٦٨ م .

- الشعر والشعراء – ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) دار المعارف بمصر ، تحقيق احمد محمد شاكر ١٩٧٧ م .

- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ) د . ت . م .

- الطبيعة في العصر الجاهلي – نوري القيسي ، دار الاندلس بيروت ١٩٧٠ .

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي – شوقي ضيف (ت ٢٠٠٥ م) دار المعارف بمصر الطبعة السابعة ١٩٦٩ م .

- التذوق الجمالي لمعلقة امرئ القيس – محمد علي أبو حمدة ، جمعية عمال المطابع التعاونيه طبعه اولى ١٤٠٨-١٩٨٨ .

- لسان العرب – ابن منظور الافريقي (ت ٧١١ هـ) دار صادر، دار بيروت ١٣٧٥-١٩٥٥ م .

- مجالس ثعلب أبو العباس احمد بن يحيى – تحقيق عبد السلام محمد هارون طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٦ .

- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية – ناصر الدين الاسد – دار المعارف بمصر طبعة ثالثة ١٩٦٦ .

- مقالات في الشعر الجاهلي – يوسف اليوسف ، دار الحقائق ط ٤ لسنة ١٩٨٥.

- مقدمة القصيدة العربية – د . حسين عطوان ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

- منهاج البلغاء وسراج الادباء – حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) تحقيق محمد بن الخوجة دار الكتب الشرقيه ١٩٦٦ .

الوصف – سامي الدهان – دار المعارف بمصر. د . ت .